

الرمي بالبندق إلا من ينتمي إليه . هذه كانت مشاغله المعجبة والكثر يمعنون في بلاد المسلمين قتلاً وأسرًا وتخريباً ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بالفخري ثناء جمًا ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأي الإمامية والظاهر أن هذا هو الذي حبه إلى المؤرخ المذكور .

بقي الناصر في أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلاً عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصاراً ضعيفاً وفي آخر الأمر أصابته دوزنطاريا عشرين يوماً وكانت بها منيته .

٣٥ - الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويغ بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولي عهده واستمر خليفة إلى (١٤ رجب سنة ٦٢٣) فكانت خلافته تسعة أشهر و(١٤ يوماً) .

لما ولي أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العمرين قال ابن الأثير فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً فإنه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً وأطلق المكوس في البلاد جميعها وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وأن يسقط جميع ما جرده أبوه وكان كثيراً لا يحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التي كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يس أكثر أشجارها وخربت ومتى طولبوا بالخرج الأول لا يفي دخل الباقي بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شيء ومن أعماله أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله ﴿ويل للمطففين﴾ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾^(١) قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التي يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى فكتب بعض النواب إليه يقول إن هذا مبلغ كبير وقد حسناه فوجدناه في السنة الماضية (٣٥ ألف دينار) فأعاد الجواب يتكرر على القائل ويقول لو أنه ٣٥٠ ألف دينار يطلق وكذلك أيضاً فعل في إطلاق زيادة الصنجة التي للديوان وهي في كل دينار حبة - ونقدم إلى القاضي كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يعيده إليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت في بغداد أن المحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة في الخليفة بما تجدد في دربه من اجتماع الأصدقاء ببعض كل نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ما سوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا في حجر عظيم فلما ولي الظاهر أنه المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال: أي غرض لنا في معرفة أحوال

(١) سورة: المطففين، الآيات: ١ - ٥ .

الناس في بيوتهم فلا يكتب أحد لنا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فليل له : إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها قال : إنا ندعو الله أن يصلحهم ومنها أنه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار إليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه ما يزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر ما معه ويستخرج الأمر في حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا إليه فأعيد عليهم . ومنها أنه أخرج كل من كان في السجون وأمر بإعادة ما أخذ منهم وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس في حبس الشرع وليس له مال .

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والإحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارساً وأذكر من الإحسان ما كان منسياً . وقبل وفاته أخرج توفيقاً إلى الوزير بخطه عن أرباب الدولة وقال الرسول : أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لا يبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال . وقد فرىء التوقيع فإذا في أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إهمالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن لنهلوكم أيكم أحسن عملاً وقد عفونا لكم ما سلف من إخراج البلاد وتشريد الرعايا وتقييح الشريعة وإظهار الباطل الجلي في صورة الحق الخفي حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيقاء واستداراً كالأغراض التي انتهزتم فرصها مخنسة من برائن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تنفقون بالفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيعطيكم وأنتم له عاصون وبوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً ويفقركم غنى ويباطلكم حقاً ورزقكم سلطاناً يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريد منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طابته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام) .

ولم تتمتع الأمة بهذا الخليفة طويلاً فإنه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته .

٢٦ - المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر .

بويج بالخلافة يوم وفاة والده (١٤ رجب سنة ٦٢٣) (١١ يولييه سنة ١٢٢٦) واستمر في الخلافة إلى أن توفي لعشرين خلون من جمادى الآخرة (سنة ٦٤٠) (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٣) فكانت خلافته (١٧ سنة) إلا شهراً .

كان المستنصر شهماً جواداً يباري الريح كرمياً وجوداً وله الآثار الجليلة في بغداد منها، وهي